الى سر السيد جمال الدين

بمناسبة ذكرى وفاته

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على القبر الذى فى ضفاف البوسفور سلام دائم كفاء الحرب الدائمة التى شنها مدى عمره على الطواغيت الثلاثة : الجهل والاستبداد والتفرق ... عناصر الشر العريق الخالد ، وثالوث الشقاء الأسود الذى تبتلى به الإنسانية حين يراد ضياعها وإهدارها وتبديد معناها

وسلام على القصر الذى سلسله فيه عبد الحميد بسلاسل الذهب وأضواه فيه بالموفور الميسور من الغذاء والديباج والخز ... وخنقه فيه بشذا الورد والريحان ... ثم أعجل أجله بالطب ... حتى اطمأن إلى أن درع روحه قد وورى التراب ...

وقبلات طاهرة مقدسة على اليد البالية التى أشارت لمحمد عبده وسعد زغلول وشكيب أرسلان وغيرهم إلى الطريق فسلكوا بالقطيع فيه ليخرجوه من المهالك والمضايق والجدب والعقم ...

* * *

يا أيتها النفس المطلقة الحرة التى ضرب الله بها مثلاً لسطوة العلم والروح وبطشهما بقوة الملك والسياسة ... تُرى ما الذى تَيَّمك حتى يَتَّمك من الأرض والوطن وفطمك من حياة الزوجية والاستقرار والهدوء والعيش السالم الناعم ؟ !

ترى ما الذى شرد النوم من جفونك ورمى بجسمك المرامى القاصية ، وجعلك « طيراً على كل غصن » يضرب بجناحه فى أجواء الشرق الإسلامى ويصرخ فى الأرض النائمة ليوقظ صرعى الطواغيت الثلاثة فى الهند والأفغان وإيران والعراق والشام والحجاز ومصر وتركيا والمغرب ... ؟

ثم ما الذى شرد النوم من جفون « جونبول » وعبد الحميد وناصرشاه وتوفيق ، حتى طاردوك وتآمروا ودبروا وكادوا واحتالوا باليد الباطشة الحمراء ... و« العين » الرنانة الصفراء ؟ . أهو روح النار التى كانوا يخافونها على ما جمعوه من هشيم ... ؟

أهو روح القوة التى خافوها من مثل صيحتك فى ميدان باب الخلق بالقاهرة بكلمتك المشهورة : « أيها الفلاح المصرى الذى يشق الأرض بالمحراث ، لم لا تشق به قلوب مستعبديك ؟! » خشوا أن تحيل النفوس الخزفية إلى حديد ذى بأس شديد ... وأن تركب براثن ومخالب وأنياباً لدوات الحوافر والأظلاف ، والقواضم والأضراس من القطعان السائمة التى ترعى لتذبح أو تحلب أو تجرجر الأثقال الدائمة أو تدور على نفسها في الحظائر تمضغ الجفاف وتجترّه فى غيبوبة عن الدنيا ذات الجنات والأنهار والعيون ... ؟

أم هو روح الحق الذى تقمصك فجعل مرآك ومنطقك ومجلسك ثلاثة مفاتيح تفك الأغلاق والأقفال والقيود عن العاين المأسورين للأصنام الإنسانية والطواغيت الثلاثة ؟

أم هو روح النور الذى مددت خيوطه إلى كل عين رأتك فرأت به الظلام الممدود على الشرق والواقعَ الأليم على الاسلام ؟

أم هو روح الثورة التى تضرمها عيناك فى كل قلب يراك حتى ولو من وراء عدسة المصور ... وأنت فى بطن الأرض ؟ !

بل كل هؤلاء جميعاً هو سرك الذى أعيا أعداءك جهادُه ..

* * *

رأى الدنيا ذات الصبح العريض المالئ للآفاق ، الشرق على الناس من الغرب . وهو فى أعماق الشرق بين جبال الأفغان أو إيران فقبس لمصباحه منه وأخذ عصاه رحالةً يقرع أبواب المسلمين النائمين الخالدين من الحاكمين والمحكومين ، وينفخ فى بوقه هاتفاً بالصوت الموقظ المنذر فى الأرض النائمة ، مشيراً بعصاه إلى الضوء الجديد فى الأفق البعيد ...

ثم سار فى خرائب الممالك الاسلامية وأطلال المجد القديم يلتقط النفوس الدُّرِّية والحديدية من الخزف والحطام والتراب . ويقبض عليها بيديه القويتين فما يتركها حتى يصقلها وتمسها كهرباؤه وتتصل بمرجل الثورة في قلبه ثم ينثرها على الآفاق الاسلامية تكهرب الجو وتضيء وترين وتحطم ...

سَلِم من خديعة الشيطان ومكره بالعلماء رجال الدين الذين يكتفون فى جهاد الإثم والجهل بأن يعكفوا على الدفاتر والمحابر فيسكروا بما فيها كما يسكر العاكفون على الخمر فيغيبون عما

حولهم من أحداث الدنيا وسياسة الحياة ، ويتركون القلوب فارغة ويملأون الرءوس بالبلبلة والأحافير وألاعيب الألفاظ . يبتغون الخلود بزعمهم فى التـاريخ والصحف ... وهم يفقدون نفوسهم فى الحياة

فبَرِئَ جمال الدين من العلم الصامت البارد وأدخل تعاليمه إلى نفوس تلاميذه ومريديه فى حرارة بعد أن هزهم هزاً عنيفاً ، وكتب رسالته على أرواحهم ومات فقيراً من ميراث الورق المسطور ... الذى يتباهى به أكثر العلماء الحفاظ ، بعد أن عاش فى ألفاظه وتعاليمه وعلم تلاميذه أن يعيشوا كذلك ... ولذلك أحدث كل منهم ثورة وسار على قدم أستاذه فسجن وعذب ونفى وشرد

* * *

هذه مقاطع آلامه كما رواها تلميذه الأمير شكيب أرسلان

« لا أريد أن أسر المسلمين بكلمة ، هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم ... أجابوه : إن آباءنا قد كانوا كذا وكذا ... وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا يغنى ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة »

« قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقاً جديداً وجيلا مستأنفاً . فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة »

« إن المسلمين قد سقطت همتهم ونامت عزائمهم وماتت خواطرهم وقام شىء واحد منهم وهو شهواتهم [1] »

وهذه مطالع آماله كما ترجمها تلميذه الأكبر الامام محمد عبده :

« صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، والاسلام يقتضي ذلك ، لأن أول ركن بنى عليه صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام ... وأن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمع ...

« وإن دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة

« وليس الاسلام كدين « برهما » الذى قسم الناس إلى أربعة أقسام وقرر لكل منزلة لا يتجاوزها ... ولا هو كاليهودية التى تخص شعب اسرائيل بالكرامة والاجلال وتذكر غيرهم بالتحقير ، ولا هو كالمسيحية التى تذهب إلى أن رؤساء الدين أقرب إلى الله من جميع البشر وأنهم وساطة رضاء الله ...

« وأن تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة مجانبةً مُطالَعَة الظنون وتقليد الآباء كما يحتم القرآن

« وأن يكون فى كل أمة طائفة تختص بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس بالتهذيب والتعديل ... »

وهذه عزائم جهاده فى السياسة كما لخصها الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق بك :

١ — تخليص بلاد الإسلام من نفوذ أوروبا وخصوصاً انجلترا .

٢ — تخليصها من الاستبداد وإنشاء النظم الحرة الدستورية فيها

٣ — جمع كلمتها بجميع فرقها تحت زعامة واحدة

وهـذه وسائله السريعة التى تخيرها لتحقيق غاياته كما رآها « تشارلن آدمز » : « الثورة السياسية التى عرف أنها أسرع الطرق وآكدها لتحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها . أما وسائل الإصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جداً غير محققة العاقبة »

فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت بالهياج ضد احتكار التنباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستوره فى أغسطس سنة ١٩٠٦ ، ووالاها بالتشجيع والتأييد

وهو الذى مهد بتهييجه المتواصل للحركة التركية الموفقة التى قامت سنة ١٩٠٨

وهو الذى دفع الحركة الوطنية المصرية التى ساء ختامها بفشل الفتنة العرابية

وهكذا كان أيان يذهب يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها [1]

* * *

وصفوه لنا ...

فقالت أقلام الشرق : « حنيفى حنفى مع ميل إلى مشرب

(١) حاضر العالم الاسلامى

(١) من كتاب الاسلام والتجديد تعريب عباس محمود

السادة الصوفية رضى الله عنهم » « هو حليم يسع حلمه ماشاء الله أن يسع إلى أن يدنو أحد ليمس دينه أو شرفه فينقلب إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ... »

« وبالجملة فلو قلنا إن ما أوتيه من الذكاء هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنا غير مبالغين »

هذا بعض قول محمد عبده فيه . وهاك بعض ما قاله الأمير شكيب :

« كان فى أطوار حياته فيلسوفاً كاملاً عالماً عاملاً ... فكان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات إلا اللذة العقلية . وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج فأبى وأعرض وقال له : « قضيت حياتى مثل الطير على الغصن ، فلا أريد في آخر أيامى أن أتعلق بعائلة » وقال فى مثل هذا المقام : « لم تدخل روح الفلسفة فى هذه الأمة »

وقالت أقلام « رينان » و « روشفور » و « براون » من الغرب :

« كنت أتمثل أمامى عند ما كنت أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين »

« السيد جمال الدين الأفغانى من سلالة النبى ، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبى ... »

« كان رجلاً ذا خلق قوي ، غزير العلم موفور النشاط ، لا يجد الوهن إليه سبيلاً ، جريئاً مقداماً ؛ وكانت فصاحته لا تجارى خطيباً كان أم كاتباً ؛ وكان لطلعته هيبة فى النفس وعظمة وجلال ؛ وكان فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً وصحافيًّا ، ولكنه كان فوق ذلك سياسيًّا ... »

* * *

سيامى يغربل الحوادث ويعلق عليها ويرسم حدود الدولة والحكم الصالح للأجسام ... وحبر ديني يصقل جوهر الإنسان ويرسم حدود الحكم الصالح للأرواح ... وفيلسوف يخشى على حكمته التى رأى أمته فى حاجة ماسة إليها ، أن يجلب لها ضرائر تكيدها وتصرفه عنها ، فلم يبتغ صاحبة يبنى لها عشاً أو يقيم لها سقفاً يحن إليهما ويجبن بهما ويبخل ...

وصوفيٌّ لا يُخدع بالتراب المزَوَّق ، وينفق من الكنوز الخفية فى ملكوت السموات والأرض . ولذلك أبى قبول الرتب والأوسمة التى عرضها عليه السلطان ، فلما سئل فى ذلك قال : « أكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل ؟! »

وكذلك لما أصدر الخديو توفيق أمره بنفيه وعرض عليه قبيل السفر أحد أصدقائه الأثرياء من المصريين بعض النقود ليستعين بها فى السفر قال له : « أبقها لك فان الأسد لا يعدم فريسة أينما حل [1] »

* * *

رجل رمزى فنان ! رأيت له صورتين ما يفطن إلى شرح وضعه فيهما أحد فيما أعلم : إحداهما صورته وهو واقف قابض بيده على نموذج الكرة الأرضية . وهو رمز عظيم ومعنى جليل يدل على اتساع روحه ورحابة نفسه

وثانيتهما صورته وهو على سرير المرض فى أواخر أيامه ، وقد أمسك بيده المصحف الكريم ومسبحة ، وبسط أمامه صحيفة أفرنجية ، وذلك رمز واضح الدلالة على المعانى التى كانت تملك نفسه من الدين والتصوف والسياسة ، وخلاصة مفيدة عن ذلك الرجل الذي التقى فيه الشرق والغرب لقاء عجيباً !

يلتفت إليك الشرق الاسلامى كله فى هذه الأيام يا أيها القبر الذى ضم جثمان نذيره فى القرن التاسع عشر بعد أن ختله مرض الجبابرة والمباقرة : السرطان .. أو غول السياسة .. كما يتحدثون والديان أعلم !

عبد المنعم خلاف

(١) سمعتها من السيد رشيد رضا رحمه الله

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية الشهيرة